بسم الله الرحمن الرحيم

حول مطالبة إسرائيل بالاعتراف بـ"الدولة اليهودية"

سري نسيبة

MADA
السلسلة العربية - الكتاب ١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ

سورة الأعراف، ٧:٢٩

كتب أخرى من نفس السلسلة

١. ورد القرآن اليومي ٢٠٠٨
٢. الكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم: الأحاديث التي وردت في فضائل السور والآيات ٢٠٠٩
٣. كتاب الأربعين في رحمة الدين ٢٠٠٩
٤. بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ٢٠٠٩
٥. الحقيقة والمعرفة ٢٠٠٩
٦. تعداد الضحايا ٢٠١٠
٧. القرآن الكريم والبيئة ٢٠١٠
٨. الخطاب الموجه إلى صاحب القداسة البابا بنديكتوس السادس عشر ٢٠١٠
٩. حِنّا ٢٠١١
١٠. العرف العاطر في معرفة الخواطر وغيرها من الجواهر ٢٠١١
١١. كتاب فضائل الذكر ٢٠١١
١٢. العقل والعقلانية في القرآن ٢٠١٢
١٣. مفهوم الإيمان في الإسلام ٢٠١٢
١٤. كتاب الإعلام بمناقب الإسلام ٢٠١٢
١٥. الخطاب الموجه إلى رابطة العلماء الأردنيين ٢٠١٢
١٦. حول مطالبة إسرائيل بالاعتراف بـ "الدولة اليهودية ٢٠١٢

حول مطالبة إسرائيل بالاعتراف بـ"الدولة اليهودية"

سري نسيبة

١٦

MADA

السلسلة العربية - الكتاب ١٦

حول مطالبة إسرائيل بالاعتراف بـ"الدولة اليهودية"

سري نسيبة

تعويذة إسرائيل الحالية هي أن على الفلسطينيين الاعتراف بـ«الدولة اليهودية». والحقيقة هي أن الفلسطينيين قد اعترفوا مرارًا وتكرارًا بشكل واضح وصريح بدولة إسرائيل كما هي منذ اتفاقية أوسلو في ١٩٩٣ (والتي بُنيت على أساس وعد إسرائيلي بإقامة دولة فلسطينية في غضون خمس سنوات – وهو وعد ذهب أدراج الرياح في الـ ١٤ عامًا الماضية). ولكن في الآونة الأخيرة قام القادة الإسرائيليون بتغيير الموازين بشكل درامي ومن طرف واحد ويطالبون الفلسطينيين بالاعتراف بـ«الدولة اليهودية».

في عام ١٩٤٦ توصلت اللجنة الإنجليزية-الأمريكية إلى قرار يشير إلى أن المطالبة بـ"الدولة اليهودية" ليس ضمن نطاق التزامات وعد بلفور أو

الانتداب البريطاني. وحتى في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام ١٨٩٧ حين سعت المنظمة الصهيونية إلى "إقامة وطن يهودي" أو "كومونولث يهودي"، فلم يكن هناك تركيزأبدًا على إقامة "الدولة اليهودية". وقد تجنب الكثيرمن قادة ورواد المنظمة الصهيونية استعمال مصطلح "الدولة اليهودية" بشكل واضح وصريح أثناء مناقشة مشروع إقامة وطن لليهود وفضّلوا استخدام مفهوم الدولة الديمقراطية (دولة إسرائيل لكل مواطنيها) أو دولة ذات قوميّة ثنائيّة.

وعلى الرغم من ذلك، مازالت مطالب السياسيين الإسرائيليين بإقامة "الدولة اليهودية" في تزايد مستمر، من دون إعارة الانتباه إلى النتائج المترتبة على ذلك. كما ويدّعي مؤيّدو هذه الفكرة أن المطالبة بها كالمطالبة بدولة فرنسية مثلاً. لكن لو قمنا بتحليل الأمر بشكل موضوعي سنجد أن فكرة إقامة "الدولة اليهودية" تشكّل مشكلة أخلاقية ومشكلة من حيث المنطق وذلك بسبب آثارها القانونية والدينية والتاريخية والاجتماعية المترتبة. لذلك، يتوجب توضيح الآثار الناجمة عن هذا المصطلح ونحن على يقين أنه حالما تتضح انعكاسات ومعاني هذا المطلب، فإن هذه الآثار لن تلقى قبولاً لدى معظم الأفراد ومعظم المواطنين الإسرائيليين.

أولاً، لنوضح أن هناك مجالا لنشوء نوع من الالتباس والإبهام الفوري. إذا

تم إطلاق مصطلح "يهودي" على سلالة بني إسرائيل القدامى ونسلهم، أو إطلاقه على من يؤمن بالديانة اليهودية ويمارسها. وبشكل عام فإن هذين أمران متداخلان؛ فمثلاً، بعض الأشخاص من العِرق اليهودي لا يعتنقون أية ديانة وهناك أشخاص تحولوا إلى الديانة اليهودية ولكنهم ليسو من العِرق اليهودي (بغض النظر عن إن كان اليهود المتزمتين يعترفون بيهودية مثل هؤلاء).

ثانيًا، دعونا نقترح أن تعريف الدولة القومية الحديثة بِناءً على عِرق واحد أو ديانة واحدة مشكلة في حدّ ذاتها - إن لم يكن مناقضًا لنفسه - لأن الدولة القومية الحديثة في حدّ ذاتها مؤسسة دنيوية ومدنية، ولأنه لا توجد دولة في العالم متجانسة عرقيًا أو دينيًا، ولا يمكن أن يحدث ذلك عمليًا.

ثالثًا، الاعتراف بإسرائيل كـ"دولة يهودية" يوحي بأن إسرائيل إما حكومة دينية - أو يجدر بها أن تكون - (إن اعتبرنا أن كلمة "يهودية" هنا تعني الديانة اليهودية) أو بأنها دولة فصل عنصري (إن اعتبرنا أن كلمة "يهودية" هنا تعني العِرق اليهودي) أو كلاهما، وفي الحالتَين لا تعد إسرائيل دولة ديمقراطية، والمفروض أن ديمقراطية إسرائيل أمر يفتخر به معظم الإسرائيليين منذ تأسيس الدولة في عام ١٩٤٨.

رابعًا، بحسب دائرة الإحصاء المركزية في إسرائيل فإن واحدًا من كل

خمسة إسرائيليين هو من أصول عربية، أي أنّ ٢٠٪ من السكان (ومعظمهم إما مسلم أو مسيحي أو من الدروز أو البهائيين)، وأن الاعتراف بـ"الدولة اليهودية" يجعل تلقائيًا خُمس سكان إسرائيل غرباء في وطنهم الأصلي ويجعلهم من الناحية القانونية وغير الديمقراطية مواطنين من الدرجة الثانية (أو حتى تنزع منهم مواطنتهم وغيرها من الحقوق) - وهذا أمر لا يحق لأحد أن يفعله، لا سيما قائد فلسطيني.

خامسًا، الاعتراف بإسرائيل "كدولة يهودية" يعني قانونيًا أن الفلسطينيين لا يملكون حقوق المواطن على أرضها، في حين أن أيّ يهودي من أيّ مكان في العالم ومن خارج إسرائيل (ربما يصل عددهم إلى ١٠ مليون شخص) له كامل حقوق المواطن هناك وبغض النظر عن جنسيته. وفعلاً، فإن إسرائيل تعترف علنًا بأنها لا تحتفظ بالأرض من أجل مواطنيها وإنما تحفظها "كوديعة" ليهود العالم إلى نهاية الزمان. وهذا أمر يحدث فعليًا وهو بالطبع أمر يراه الفلسطينيون في الأراضي المحتلة ومن ضمنها القدس الشريف على أنه غير منصف لأن الفلسطينيين في الشتات محرومين من الحق نفسه وخاصة لأن إسرائيل تطردهم من وطنهم ووطن أجدادهم لتخلق متسعًا للمستوطنين اليهود الأجانب.

سادسًا، الاعتراف بـ"الدولة اليهودية" يعني أنه حتى قبل بدء مناقشة

قضايا الوضع النهائي في مفاوضات السَّلام سيكون الفلسطينيون قد تخلوا عن حقوق نحو ٧ مليون فلسطيني في العودة أو التعويض، ممن هم من نسل الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في فلسطين التاريخية في عام ١٩٠٠ (أي إسرائيل اليوم والضفة الغربية ومن ضمنها القدس الشريف وغزة) وكانوا في ذلك الوقت يشكّلون ٨٠٠,٠٠٠ نسمة من ضمن ٨٤٠,٠٠٠ نسمة؛ وقد تمّ إبعاد هم من أرضهم من خلال الحرب والطرد العنيف ونشر الرعب.

سابعًا، الاعتراف بـ"الدولة اليهودية" في إسرائيل - وهي دولة ترمي إلى الاستيلاء على القدس الشرقية والغربية كاملة، وتصف القدس على أنها "عاصمة إسرائيل الأبدية والغير مُقسّمة" (وكأن المدينة أو حتى العالَم نفسه أبديان؛ وكأنها فعلاً غير مُقسّمة، وكأن المجتمع الدولي يعترف قانونيًا بالقدس كعاصمة لإسرائيل) - أي أن هناك تجاهل تام لحقيقة أن القدس مدينة مقدسة بالنسبة لـ٢,٢ بليون مسيحي و١,٦ بليون مسلم كما هي بالنسبة للـ١٥-٢٠ مليون يهودي حول العالم. بعبارة أخرى، فإن هذا الاعتراف يعني تمييز الديانة اليهودية وتشريفها على حساب الديانتين المسيحية والإسلامية واللتين يشكّل أتباعهما ٥٥٪ من سكان العالم. ومن المؤسف أن هذه رواية ينشرها حتى إيلي ويزل المؤلف المعروف والحائز على جائزة نوبل والذي دفع ثمن نشر دعايات تتألف من صفحة كاملة في النيويورك

تايمز والواشنطن بوست تزعم أن القدس الشريف "مذكور أكثر من ٦٠٠ مرة في الكتاب المقدس - وليس مذكورًا إطلاقًا في القرآن". نحن لا نزعم أننا نتحدث باسم الفلسطينيين العرب المسيحيين - إلّا أن نقول إنه من الواضح أن القدس مدينة السيد المسيح عليه السلام - ولكننا كمسلمين نؤمن أن القدس ليست "ثالث مدينة مقدسة في الإسلام" كما يُزعم أحيانًا وإنما، ببساطة، إحدى مدن الإسلام المقدسة الثلاثة. وبالطبع بالرغم مما يؤمن به السيد ويزل، فإن القدس مذكورة في القرآن الكريم:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾
(سورة الإسراء، ١٧:١)

ويستطيع المسلمون الذين يرغبون في تبنّي رواية تُقصي الآخرين دينيًا أن يشيروا إلى أنه في حين أن القدس مذكورة ٦٠٠ مرة في الإنجيل، إلّا أنها غير مذكورة في التوراة - وهذه حقيقة يمكن إثباتها بسهولة من خلال البحث في فهرس أبجدي للكتاب المقدس. ولكننا بالطبع نعترف بأهمية أرض إسرائيل بالنسبة للديانة اليهودية - حتى أن هذا مذكور في القرآن الكريم، (٢١:٥) - وتكمن مطالبنا فقط بأن تبادلنا الحكومة الإسرائيلية ذات الاحترام

بالنسبة لهذا الموضوع وأن تدع المسلمين أن يعبّروا عمّا يعتبرونه - ولطالما اعتبروه - مقدساً بالنسبة لهم.

ولكن هناك سبب آخر يمنع وبشكل أخلاقي أي من القادة الفلسطينيين أو أي شخص يتحلّى بالمسؤولية من الاعتراف بـ"الدولة اليهودية"، وهي نقطة أكثر خطورة من النقاط السبعة آنفة الذِكر. وهي تتعلق بالعهد بين الله عزّوجل في الإنجيل وبين بني إسرائيل بالنسبة للوعد بوطن لليهود. يقول الله تعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام في الإنجيل:

فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلاً: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ. الْقِينِيِّينَ وَالْقَنِزِّيِّينَ وَالْقَدْمُونِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ» (سِفر التكوين، ١٥: ١٨-٢١)

وبعد ذلك، بحسب الكتاب المقدس، يملك بنو إسرائيل هذه الأرض في زمن سيدنا موسى عليه السلام وذلك بحسب أمر الله كما هو موضح:

مَتَى أَتَى بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا، وَطَرَدَ شُعُوبًا كَثِيرَةً مِنْ أَمَامِكَ: الْحِثِّيِّينَ

وَالْحِرْجَاشِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، سَبْعَ شُعُوبٍ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْكَ، وَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ أَمَامَكَ، وَضَرَبْتَهُمْ، فَإِنَّكَ تُحَرِّمُهُمْ. لاَ تَقْطَعْ لَهُمْ عَهْدًا، وَلاَ تُشْفِقْ عَلَيْهِمْ (سِفر التثنية، ٧: ١-٢)

اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ، أَنْتَ الْيَوْمَ عَابِرٌ الأُرْدُنَّ لِكَيْ تَدْخُلَ وَتَمْتَلِكَ شُعُوبًا أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ مِنْكَ، وَمُدُنًا عَظِيمَةً وَمُحَصَّنَةً إِلَى السَّمَاءِ. قَوْمًا عِظَامًا وَطِوَالاً، بَنِي عَنَاقَ الَّذِينَ عَرَفْتَهُمْ وَسَمِعْتَ: مَنْ يَقِفُ فِي وَجْهِ بَنِي عَنَاقَ؟ فَاعْلَمِ الْيَوْمَ أَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ هُوَ الْعَابِرُ أَمَامَكَ نَارًا آكِلَةً. هُوَ يُبِيدُهُمْ وَيُذِلُّهُمْ أَمَامَكَ، فَتَطْرُدُهُمْ وَتُهْلِكُهُمْ سَرِيعًا كَمَا كَلَّمَكَ الرَّبُّ. (سِفر التثنية، ٩: ١-٤)

ومصير الكثير من السكان الأصليين هو الآتي:

وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ. (سِفر يشوع، ٦:٢١)

ويستمر هذا كالآتي:

وَقَالَ صَمُوئِيلُ لِشَاوُلَ: إِيَّايَ أَرْسَلَ الرَّبُّ لِمَسْحِكَ مَلِكًا عَلَى شَعْبِهِ إِسْرَائِيلَ. وَالآنَ فَاسْمَعْ صَوْتَ كَلاَمِ الرَّبِّ. هكَذَا يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ: إِنِّي قَدِ افْتَقَدْتُ مَا عَمِلَ عَمَالِيقُ بِإِسْرَائِيلَ حِينَ وَقَفَ لَهُ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ صُعُودِهِ مِنْ مِصْرَ. فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً، طِفْلاً وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلاً وَحِمَارًا. (سِفر صموئيل الأول، ١٥: ١-٣)

انتقاء الآيات التي تسمح أو تأمر بالعنف من الكتب المقدسة أمر سهل جدًا ويستطيع المرء أن يقتبسها خارج سياقها. فمثلاً يستطيع المرء اقتباس "آية السيف" من القرآن الكريم خارج سياقها:

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة التوبة، ٩: ٥)

كما من السهل أن يقتبس المرء آيات خارج سياقها من حياة السيد المسيح عليه السلام من الكتاب المقدس:

أَمَّا أَعْدَائِي، أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأْتُوا بِهِمْ إِلَى هُنَا وَاذْبَحُوهُمْ قُدَّامِي (إنجيل لوقا، ١٩:٢٧)

لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا (إنجيل متّى، ٩:٣٤)

على أية حال، الحقيقة هي أنه في العهد القديم يأمر اللهُ تعالى بقيام الدولة اليهودية في أرض إسرائيل من خلال الحرب وسلب السكان الأصليين أرضهم بالعنف. وفي الإنجيل نجد جذور هذا الأمر في العهد بين الله عزّ وجلّ وسيدنا إبراهيم عليه السلام (أو "أبرام" آنذاك) وهذا يُشكّل - على حدّ فهمنا - أحد أركان الديانة اليهودية الأساسية. إذًا، لا يستطيع أحد أن يلوم الفلسطينيين وأحفاد الكنعانيين واليبوسيين القدامى وغيرهم ممن عمّروا الأرض قبل بني إسرائيل القدامى (كما نرى في الإنجيل) إن أظهروا بعض الارتياب مما قد يعنيه الاعتراف بـ"الدولة اليهودية" بالنسبة لهم، خاصة بالنسبة لبعض اليهود الأرثوذكس والمتزمتين. كما لا يستطيع

أحد أن يلقي اللوم على الفلسطينيين حين يتساءلون إن كان الاعتراف بـ"الدولة اليهودية" يعني الاعتراف بشرعية العنف والحرب العدوانية التي تشنها إسرائيل عليهم لأخذ ما تبقى من فلسطين منهم. وبالطبع فإن هذا يأتي في إطار تقوم فيه حركة الاستيطان الإسرائيلية بسلب المزيد من الأراضي في الضفة الغربية والقدس كل يوم (هناك ٥٠٠,٠٠٠ مستوطن إسرائيلي في الضفة الغربية وحدها)، والحكومة الإسرائيلية الحالية تساعدهم وتحرضهم وتمولهم وتقوّي شوكتهم. وحركة الاستيطان تطرد الفلسطينيين وتجبرهم على الرحيل بشتى الطرق والوسائل؛ إن تطلَّب وصف أفعالها، فلن تسعها المجلدات. وهناك تقارير من مصادر موثوقة أنه بالرغم من الاتفاق الذي يكاد أن يكون بالإجماع في النصوص الدينية اليهودية على مرّ العصور أن الأمر الإلهي بقتل العمالقة القدامى كان حدثًا تاريخيًا منفردًا ومتوحدًا يُطبّق فقط على العمالقة القدامى، إلّا أنه توجد مدارس دينية معينة في إسرائيل يقوم المعلمون فيها بتعليم الطلاب بأن الفلسطينيين اليوم هم نظراء العمالقة القدامى وأمثالهم (ويبدو أن هذا رأي الحاخام مردخاي إيلياهو، رئيس الحاخامات الإسرائيلية السابق؛ وانظر أيضًا مقالة شالوميت ألوني "جرائم قتل تحت غطاء الإيمان" في CounterPunch (Murder Under the Cover of Righteousness)

٨- ٩ مارس، ٢٠٠٣).

في الخلاصة، إنّ الاعتراف بـ"الدولة اليهودية" في إسرائيل ليس كالاعتراف باليونان كـ"دولة مسيحية" مثلاً. فالأمر يتضمن، في العهد القديم نفسه، عهداً بين الله وشعباً مختاراً حول أرض موعودة يجب أن تُؤخذ بالقوة على حساب سكان الأرض الآخرين وغير اليهود. وهذه فكرة غير موجودة بهذه الصورة في أية ديانة أخرى على حدّ علمنا. حتى أن الأصوات العلمانية والتقدمية في إسرائيل، مثل الرئيس السابق لمحكمة العدل العليا في إسرائيل أهارون باراك، يرون مفهوم "الدولة اليهودية" كالآتي:

> الدولة اليهودية هي دولة الشعب اليهودي . . . إنها دولة يملك فيها كل يهودي حق العودة . . . الدولة اليهودية تستمد قيمها من إرثها الديني، والإنجيل هو كتابها الأساسي وأنبياء إسرائيل أساس أخلاقها . . . الدولة اليهودية دولة أسس قيمها هي قيم إسرائيل والتوراة والتراث اليهودي وقيم الهلاخا (الشرع اليهودي). (دولة في حالة طوارئ، A State in Emergency، هآرتز، ١٩ يونيو، ٢٠٠٥).

إذاً بدلاً من أن يطالب القادة الإسرائيليون الفلسطينيين الاعتراف بإسرائيل كـ"دولة يهودية" - وهم بذلك يزيدون "الوقاحة" فوق الجرح

والإهانة - نقترح على القادة الإسرائيليون أن يطالبوا بالاعتراف بإسرائيل (المضبوطة) دولة مدنية، ديمقراطية، تعددية وديانتها الرسمية اليهودية. كثير من الدول (ومنها جارتَي إسرائيل، الأردن ومصر - واليونان أيضًا) تعلن المسيحية أو الإسلام ديانة الدولة الرسمية (ولكنها تمنح كل مواطنيها حقوقًا مدنية متساوية). ولا يوجد سبب يمنع يهود إسرائيل من الرغبة في أن تكون ديانة الدولة الرسمية هي اليهودية. هذا مطلب معقول وقد يخفف من مخاوف اليهود من الإسرائيليين من أن يكونوا الأقلية في إسرائيل وفي نفس الوقت سيخفف هذا من خوف العرب من التطهير العِرقي في فلسطين. كما أن المطالبة بالاعتراف باليهودية كديانة رسمية لإسرائيل، بدلاً من الاعتراف بـ"الدولة اليهودية"، سيعني أن تستمر إسرائيل بكونها ديمقراطية.